ركب الحج المصري في عصر المماليك
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

أ. د. حسين سيد عبدا لله مراد*

مستخلص:

سوف تتناول هذه الورقة الموضوع من خلال محاور إمارة ركب الحج المصري وركب الحج المصري والحجاج الأفارقة، والذي يتكون من ركب حجاج بلاد المغرب وركب حجاج السودان الغربي (غرب أفريقيا) وركب حجاج السودان الأوسط (وسط أفريقيا)، وكذلك الاحتفال بالركب قبل اتجاهه إلى بلاد الحرمين وطريق ركب الحج السلطاني إلى الحجاز، وأخيرا المصاعب التي كانت تواجه ركب الحج المصري.

المقدمة:

نهضت مصرُ في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) بمرفق الحج، بحكم موقعها الجغرافي المتوسط الذي جعلها المعبر الوحيد للحجاج القادمين من بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربي والأوسط. ودفع مصر للنهوض بمرفق الحج أن مصر في ذلك العصر تقلدت الزعامة الدينية بعد أن قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، وأصبحت القاهرة في ذلك العصر عاصمة للخلافة العباسية، بالإضافة إلى الزعامة الدينية تقلدت مصر الزعامة السياسية للعالم الإسلامي بعد أن قضت على بقايا الصليبيين، وتصدت للخطر المغولي.

وتتجلى مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بتيسير أداء الفريضة من خلال الاهتمام بركب الحج، وتقديم كل مظاهر الرعاية من الخدمات المطلوبة للركب، منذ خروج الركب من بركة الحاج في مصر، حتى الوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين. ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك توفير كل احتياجات الركب والاحتفال المهيب بخروج هذا الركب.

وقد تعددت ركاب الحج إلى بلاد الحرمين، وشملت بالإضافة إلى ركب الحج المصري ركب الحج الشامي، وركب الحج العراقي، وركب الحج اليمني[١]. لكن ركب الحج المصري في العصر المملوكي كان الركب الأهم، من ناحية الانتظام، والعناية والأمن للأسباب الآتية:

١ – تبعية بلاد الحجاز للدولة المملوكية من الناحية السياسية والروحية

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي– ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية– جامعة القاهرة

[١] عن ركب الحج الشامي والعراقي واليمني والطرق التي كان يختارها كل ركب حتى يصل إلى بلاد الحرمين، انظر: آمنة حسين محمد: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٩٤ إلى ص ١٥٨

٢ – الجهود التي بذلها سلاطين المماليك للعناية بركب الحج المصري من خلال توفير سبل الراحة للحجاج، وتوفير الأمن لهم منذ خروجهم من مصر، وحتى عودتهم بعد أداء فريضة الحج[٢]

٣ – انضمام ركاب الحج القادمة من بلاد المغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي والأوسط إلى ركب الحج المصري في القاهرة، لما يقدمه ركب الحج المصري لهم من خدمات أمنية واجتماعية[٣].

٤ – طبيعة الحياة الدينية في مصر في ذلك العصر، فقد شهدت البلاد نشاطاً دينياً منقطع النظير، بدأ بمحاولات سلاطين المماليك صبغ حكمهم بصبغة شرعية، واتخاذ الدين ستاراً يخفي حقيقة شعورهم باغتصاب الحكم، ويقربهم إلى قلوب الشعب المصري – الذي كان غالباً يتقبل الأمر الواقع – وليس هناك أقوى من المشاعر الدينية التي يمكن استغلالها على أساس أن المماليك مسلمون حريصون على إقامة شعائر الدين. [٤]

ويقدم السيوطي (المتوفى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) وصفاً لما كان عليه الركب من تنظيم، وحسن عناية من سلاطين المماليك، فكان للركب قيادة هو أمير الركب الذي كان يعاونه عدد كبير من الإدلاء لهداية الركب إلى الحرمين، وعدد كبير من الأمراء والجند لتوفير الحماية والأمن للركب. كما كان يعاونه عدد من القضاة والشهود لحل النزاعات التي تنشب بين أفراد الركب، ويضم الركب الأئمة والمؤذنين لإعانة أفراد الركب في أداء فريضة الصلاة، كما يضم الركب عدداً من الأطباء لتوفير العناية الصحية لأفراده، وإعطائهم العقاقير الطبية والأدوية، وكان منهم أطباء العيون، وأطباء العظام المجبرون الذين يقومون بتجبير العظام. كما كان يتم توفير الماء والزاد للفقراء والضعفاء والمحتاجين، ولم يخل الركب من مغسل الموتى للذين يتوفاهم الله في الطريق. [٥]

والجدير بالذكر أن قوة الشعور الديني في العصر المملوكي جعل الكثيرين يتوقون لتأدية الفريضة، ووجد الواقفون أن في إعانتهم على تأدية الفريضة وجهاً من وجوه البر التي يتفقون فيها صدقاتهم من ريع أوقافهم [٦]. وقد جاء في إحدى الوثائق الوقفية من إنفاق جزء من ريع الوقف صحبة الركب الشريف والمحمل السلطاني المتوجه إلى بلاد الحجاز كل سنة، صحبة من يوثق بدينه وخيره وأمانته وكفايته الذي يصرف ذلك بطول الطريق ذهابا وإيابا على المنقطعين من الحجاج الذين

---

[٢] المرجع السابق، ص١٥–١٧.

[٣] عن الخدمات الدينية والغذائية والصحية، انظر السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م/ جـ٢، ص٢٦٦.

[٤] سعيد عاشور: المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٣٦، ص٨٨.

[٥] حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٦٦.

[٦] الوثيقة وقف السلطان حسن، رقم ٨٨١، أوقاف، ص٤٧٣، نقلا عن محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ٦٤٨– ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠– ١٥١٧م، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٢٢٣.

قاربوا الأشراف على الهلاك من المسلمين من أجرة حمل وإطعام طعام، وإسقاء ماء، وكلفة ما يكون في ذلك، ويصرف ذلك بمباشرة أمير الحاج، واطلاعه على ذلك. [٧]

بالإضافة إلى الإنفاق الطوعي على ركب الحج المصري من خلال الأوقاف، كان هناك إنفاق قسري من خلال المغارم الإجبارية التي كانت تفرض على أمراء المماليك للإنفاق منها على ركب الحج، وامتدت المغارم إلى الفلاحين المصريين الذين كانوا يطالبون بتقديم الجمال والشعير، وغيرها من المغارم [٨].

أولاً – إمارة ركب الحج المصري:

كان أمير ركب الحج المصري ممثلاً للسلطان المملوكي الذي كان يصدر مرسوماً يقلد فيه أمير الركب. وقد أور القلقشندى المتوفى عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م نموذجا لهذا المرسوم، يبدأ بحمد الله، ثم يبين تبعية بلاد الحجاز، والأماكن المقدسة لسيادته، وأن من مسؤولياته النظر في أمر ركب الحجيج المتجه إلى بيت الله الحرام بحفظ الأنفس والأموال، وتأمين الخيل والرجال. ثم يوضح المرسوم صفات أمير الركب والتي من أجلها تم تقليده إمرة الركب، ومنها الصلاح، والعلم، وحسن السريرة، ونفاذ البصيرة، وعدل السيرة. [٩]

وكان أول أمير لركب الحج المصري في العصر المملوكي أوردت المصادر اسمه، هو الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله، قلده السلطان بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٥٩-١٢٧٧م) إمرة الحج عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م [١٠]. والجدير بالإشارة أن مصادر العصر المملوكي أوردت أسماء من تولى إمرة ركب الحج المصري من أمراء المماليك في معظم سنوات هذا العصر. [١١]

ولتسهيل الإشراف على أمر الحجيج، وتقديم العون لهم كان يتم تقسيم الركب إلى عدة ركاب صغيرة، على رأس كل ركب منها أمير من الأمراء في رحلة الذهاب والإياب، وهؤلاء الأمراء كانوا يعاونون أمير الركب. وتتعدد الركبان وتصل إلى سبعة أو أكثر، ويضم كل ركب مئات أو آلاف الجمال التي كانت تحمل الحجيج وأمتعتهم[١٢].

ويأتي قاضي الركب في المرتبة الثانية بعد أمير الركب لتعدد مهامه التي نتعرف عليها من خلال مرسوم تقليد قاضي الركب، منها تطبيق الأحكام الشرعية، وتبصير الحجيج بأحكام الحج،

---

[٧] وثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق رقم ٦٦، محفظة ١١بالمحكمة، نقلا عن محمد أمين: مرجع سابق، ص ٢٢٣، ص٢٢٤.

[٨] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الجزء الثاني، قسم ٣، ص ٧٠٥-٧٠٩

[٩] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، جـ١٠، ص٤٠٤-٤٠٦.

[١٠] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٧، ص٢٣١

[١١] عن أمراء الركب في العصر المملوكي، انظر عائشة فالح عبيد: إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ملحق رقم ٢، ص ٢٠٢إلى ٢٢٣.

[١٢] ابن تغري بردي: مصدر السابق، جـ ١٦، ص١٣٣ – ١٥١.

وأركانه، ومحظوراته، وإثبات أهلة الشهور التي تترتب أحكام الحج عليها. ويبدأ عمله في الوقت المحدد له على عادة من تقدمه في هذه الوظيفة، ويتصف هذا القاضي بغزارة علومه[١٣]. بالإضافة إلى القاضي، كان هناك شهود السبيل المعبر عنهم بشهود المحمل، وكانت تكتب لهم أوامر شريفة من ديوان الوزارة [١٤].

يبدأ الإعلان عن الاستعداد لرحلة الحج قبل بدء تحرك الركب بأربعة أشهر، وكان هذا الإعلان أمراً متبعاً كل عام تقرأ فيه دعوة السلطان للناس بالحج في المساجد في شهر شعبان، وأن ركب الحج السلطاني سوف يتحرك في يوم يحدد من مكان محدد. ويكرر النداء في شهر رمضان من على منابر المساجد، وحين ينتصف شهر شوال يخرج ركب الحج المصري، وكانت تضم إليه الركاب القادمة من بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربي والأوسط في ركاب منتظمة وتخرج من مكان معين خارج القاهرة [١٥].

ثانيًا – ركب الحج المصري والحجاج الأفارقة:

–ركب الحج المغربي:

كان الحجاج المغاربة قبل نشأة الركب المغربي يأتون في جماعات إلى القاهرة للخروج مع الركب المصري، فقد حج يحيى بن إبراهيم الجدالي عام ٤٢٧هـ/١٠٣٣م، وبعد أن قام بأداء الفريضة عاد إلى بلاده، ومر في عودته بمدينة القيروان، والتقى فيها الفقيه أبي عمران القاسي الذي بعثه إلى وجاج بن زلو اللمطي في مدينة نفيس جنوب المغرب الأقصى فاختار له الأخير أحد تلاميذه، وهو عبد الله بن ياسين لتفقيه القبائل الصنهاجية وتصحيح العقيدة[١٦].

وطبقاً لما ذكره محمد المنوني، فإن الركب المغربي الذي كان يطلق عليه "الركب الصالحي" نسبة إلى مؤسسه أبي محمد صالح الماجري (المتوفى عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) الذي كان من أركان طريقته الدعوة للحج، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، واستمر الإمام الجليل على ذلك بقية حياته. وكان هذا الركب يتحرك من مدينة أسفي إلى مصر، ثم بلاد الحجاز [١٧].

وكان لتأسيس الركب الصالحي، وما لاقاه من الاهتمام ثماره المفيدة، ونتائجه الطيبة، فقد انفسحت الطريق أمام الحاج المغربي، وتمهدت مادياً وأدبياً، وكثر القاصدون للأراضي المقدسة. ثم حل ركب الحج الفاسي محل الركب الصالحي، ويرجع تأسيسه إلى السلطان المريني يوسف بن يعقوب (٦٨٥–٧٠٦هـ/١٢٨٦–١٣٠٧م). واستمر هذا الركب في نقل الحجاج المغاربة إلى مصر،

---

[١٣] القلقشندى: مصدر سابق، جـ١١، ص٤٤٢–٤٤٣.

[١٤] المصدر السابق، والجزء، ص٤٤٣

[١٥] المقريزي: السلوك، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٠م، جـ٣، قسم ٢، ص٧٤٧، انظر الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص١١.

[١٦] ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر وتعليق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧م، ص٧، ٨.

[١٧] من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، ١٩٥٣م، ص٧.

ومنها للحجاز طوال عصر الدولة المرينية، وظل هذا الركب في العصر المريني، ثم الدولة العلوية ركب المغرب الرسمي الذي أكسبه أبهة وجلالاً، حتى بعد أن أصبح الركب المراكشي في عهد السعديين هو ركب الدولة، استطاع الركب الفاسي الحفاظ على مركزه ومقامه لدعم السلطة الحاكمة، وأثرياء المجتمع المغربي لهذا الركب [١٨].

لم يقتصر توافد الحجاج القادمين من بلاد المغرب على حجاج المغرب الأقصى، فالراجح توافد حجاج المغربين الأوسط والأدنى إلى مصر صحبة الركب الفاسي، خاصة إذا علمنا أن مصر كانت المعبر الوحيد للحجاج القادمين من تلك البلاد.

على أية حال كان ركب الحجاج المغربي أحد أهم ركاب الحج التي كانت تنضم لركب الحج المصري لتنعم بأمن الطريق إلى بلاد الحرمين، بالإضافة إلى التمتع بكل الخدمات التي يقدمها الركب المصري.

-حجاج السودان الغربي (غرب أفريقيا):

كما وفرت مصر في عصر سلاطين المماليك الرعاية والحماية للحجاج القادمين إليها من بلاد السودان الغربي، فقد أدى انتشار الإسلام في بعض ممالك السودان الغربي بصفة رسمية بداية من أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واستمرار انتشاره في بقية الممالك طوال هذا القرن [١٩] إلى خروج مسلمي تلك البلاد لأداء فريضة الحج التي فرضها الله عز وجل على كل مسلم قادر.

فكانت رحلات الحج القادمة من تلك الممالك تمر بمصر في طريقها إلى بلاد الحرمين، وتخرج مع ركب الحج المصري الذي كان يوفر لهم الحماية والأمن. وبعد أداء فريضتهم يمرون أيضا بمصر صحبة هذا الركب، وبعد الاستراحة من عناء الطريق كانوا يتأهبون للعودة إلى بلادهم. على أية حال لا نملك شهادات مصدرية تفيد بخروج حكام من مملكة التكرور[٢٠]، أو مملكة غانة(٢١)لأداء فريضة الحج، خاصة إذا علمنا أن التكرور أسلمت في عهد ملكها ورجابي بن رابيس عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠-١٠٤١م[٢٢].

أما بالنسبة لرحلات الحج التي قدمت من مملكة مالي، فإذا كانت رحلة حج منسا موسى الأهم والأشهر، إلا أنها لم تكن بداية رحلات الحج التي خرجت من هذه المملكة، فقد سبقتها ثلاث

---

[١٨] المرجع السابق، ص ص٩-١٠.

[١٩] حسين مراد: الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرنين ٢ -٦ هـ/٧-١٢م، مؤتمر الإسلام في أفريقيا، الخرطوم، ٢٠٠٦م، الكتاب ١١، ص٣٧٣.

[٢٠] عن مملكة التكرور، انظر مادة التكرور، المجلد الأول، انظر حسين مراد موسوعة التاريخ الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

[٢١] عن مملكة غانة، انظر أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، المجمع الثقافي، أبوظبي، ط١، ١٩٩٩م، ص١٠٧-١٢٠.

[٢٢] البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الثقافة الدينية، القاهرة، ص١٧٢

رحلات حج، أولها: رحلة حج السلطان برمندانة الذي حج عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م[٢٣]، وثاني رحلات الحج كانت لمنسا ولي بن ماري جاطة الذي مر بمصر في طريقه للحج عام ٦٥٨هـ/١٢٧٩م في سلطنة الظاهر بيبرس[٢٤]. ويعرف ثالث حكام مالي الذي أدى فريضة الحج باسم ساكورة، وقد حج عام ٦٦٩هـ/ ١٣٠٠م في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة حكمه الثانية[٢٥]. لكن ساكورة قتل على أيدي قبائل الدناقل التي كانت تنتشر على ساحل البحر الأحمر من الجنوب [٢٦].

ورغم أن هؤلاء الملوك الثلاثة قد أدوا فريضة الحج قبل السلطان منسا موسى، إلا أن الملاحظ أن الإشارة إلى رحلة حج كل واحد منهم في المصادر كانت مجملة. ويعد هذا دليلاً على أنه لم يكن في مواكبهم الحجية ما يلفت النظر حتى تحظى باهتمام المؤرخين المعاصرين، وذلك بخلاف رحلة حج منسا موسى التي اتسمت بالفخامة[٢٧].

وصل السلطان منسا موسى إلى القاهرة في شهر رجب عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م.[٢٨] واحتفى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بمنسا موسى، وتعددت مظاهر الاحتفاء [٢٩] منذ وصل في شهر رجب حتى خرج مع ركب الحج المصري لأداء الفريضة في منتصف شهر شوال، وأوصى السلطان الناصر محمد أمير الركب، وهو الأمير سيف الدين أيتمش بإكرامه، واحترامه[٣٠]. هكذا خرج منسا موسى وقومه مع ركب الحج السلطاني بكل مظاهر الحفاوة والتقدير كما تبين المصادر المعاصرة خاصة العمري.

كما تعد رحلة حج السلطان أسكيا محمد إلى بلاد الحجاز مروراً بمصر الرحلة الأشهر في مملكة صنغي[٣١]. وكان أسكيا غادر عاصمته جاو في بداية رحلته بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم في صفر عام ٩٠٢هـ/ أكتوبر نوفمبر ١٤٩٦م، ومعلوماتنا عن تفاصيل رحلته إلى الحج

---

[٢٣] ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م، جـ٥، ص ٩٣١.

[٢٤] القلقشندى: مصدر سابق، جـ٢، ص٢٩٣، المقريزي: الذهب المسبوك، ص١٤٠.

[٢٥] ابن خلدون: مصدر سابق، جـ٥، ص٩٣١.

[٢٦] المقريزي: الذهب المسبوك، ص١٤١.

[٢٧] محمد عبد العال أحمد: منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٤٠.

[٢٨] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، جـ٤، ص٣٨٣.

[٢٩] عن مظاهر احتفاء الناصر محمد بن قلاوون بضيف مصر منسا موسى، انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز وزايد للتراث والتاريخ، الامارت، ٢٠١٠م، جـ٤، ص ٧١-٧٢.

[٣٠] المقريزي: الذهب المسبوك، ص ١٤٣.

[٣١] عن مملكة صنغي انظر إبراهيم طرخان: دراسات في تاريخ افريقية الإسلامية قبل عهد الاستعمار إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، السعودية، مجلد ٨، ١٩٨١م.

محدودة، كما أن المعلومات الواردة في "تاريخ الفتاش"، و"تاريخ السودان" ليست مفصلة، وليس في الإمكان استكمال هذه المعلومات بواسطة أدلة وروايات أخرى.

والرواية في كتاب "تاريخ السودان"بها بعض التفاصيل، أما تلك التي في "تاريخ الفتاش"، فكان أهم مساهمة للمؤلف محمود كعت أنه أمدنا بأسماء الوجهاء من العلماء والفقهاء الذين رافقوا أسكيا محمد خلال رحلة حجه [٣٢].

لقد أمضى السلطان أسكيا محمد فترة سنتين منذ خرج في صفر ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م حتى عودته في ذي الحجة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، أمضى منها فترة لا تقل عن سنة في القاهرة وبلاد الحجاز. والراجح من صمت المصادر المملوكية أن وصول أسكيا إلى القاهرة لم يحظ بكثير اهتمام. ويعطي الوضع في مصر تفسيراً لذلك، فقد كانت السنتان ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، و٩٠٣هـ/١٤٩٨م مضطربتين، حيث عمت الفوضى الشاملة التي ميزت العقود الأخيرة لفترة حكم المماليك. فيذكر المؤرخ المعاصر لتلك الفترة ابن إياس أحداث عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، ويذكر حدوث عدد من الكوارث، منها مؤامرة ضد السلطان الحاكم الناصر محمد بن قايتباي الذي أزيح عن عرشه مؤقتاً، لكنه عاد واسترده. وفي هذا العام ثورة العلماء ضد السلطان لتعيينه جلال الدين السيوطي قاضياً أعلى على جميع ممالك السلطنة، ويذكر أيضا أن النزاعات أدت إلى قتل خمسين أميراً [٣٣].

والراجح أن أسكيا محمد خرج من ركب الحج المصري، وكان قليل العدد، وكان الركب بقيادة المقدم مصرباي [٣٤]. وحين تناول ابن إياس أحداث عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، وهو العام الذي مر به أسكيا محمد بالقاهرة خلال العودة إلى عاصمته جاو ذكر استمرار اضطراب الأوضاع في مصر، خاصة مع انتشار وباء في القاهرة حصد آلاف الأرواح[٣٥].

– حجاج السودان الأوسط (وسط أفريقيا):

تعد مملكة الكانم من بلاد السودان الأوسط والتي اعتنق حكامها الإسلام في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أولى الممالك السودانية التي خرج حكامها لأداء فريضة الحج، فأول من أدى هذه الفريضة "الماي أوم بن عبدالجليل" (٤٥٠– ٤٩١هـ/ ١٥٠٨–١٠٩٧م)

---

[٣٢] عمر النقر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في أفريقيا الغربية، ترجمة: أبوبكر أحمد باقادر، دار كنوز المعرفة، جدة، ط١، ٢٠١١م، ص٧٢.

[٣٣] ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م، ج٣، ص ٣٣٧، وانظر أيضا عمر النقر: مرجع سابق، ص٧٤–٧٥.

[٣٤] ابن اياس: مصدر سابق، ج٣، ص٣٣٧.

[٣٥] المصدر السابق، ص٣٣٧.

الـــذي تـوفى فـي مصـر. [٣٦] وهـو يعنـي أنـه تـوفي بعد أن أدى فريضـة الحـج، أو ربمـا قـدم وكـان ينوي أداء الفريضة، وخطفه الموت[٣٧].

كمـا أدى ابنـه المـاي دونـامة بـن أوم فريضـة الحـج مرتين عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وعام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، وتوفي وهو عائد من رحلته الحجية الثالثة [٣٨]. والراجح أن الوفاة حدثت نتيجة أعمال قرصنة [٣٩].

لما كانت القاهرة محطة مهمة ينزل بها الحجاج القادمون من بلاد الكانم في طريقهم إلى بلاد الحرمين، فقد أسس جماعة من أعيان الكانم في القاهرة مدرسة ابن رشيق[٤٠] سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، وسميت باسم مؤسسها القاضي المالكي "علم الدين ابن رشيق"، واستخدمت المدرسة مقراً لاستقبال الحجاج القادمين من بلاد الكانم[٤١].

واستمرت الرحلات الملوكية من كانم في العصر المملوكي، فقد حج والد "الماي عثمان بن إدريس"، وشقيقه "الحاج إبراهيم بن الحاج إدريس". وقد أرسل الماي عثمان إلى السلطان المملوكي برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م) برسالة يشكو فيها قبيلة جذام العربية التي اغتالت شقيق الماي [٤٢]. تبين هذه الرسالة أن هناك مراسلات بين حكام الكانم وسلاطين المماليك في مصر تسبق خروج المايات للحج من أجل تأمين مواكبهم.

ثالثاً – الاحتفال بالركب:

بعد أن يتم الإعلان عن رحلة الحج، يبدأ الاستعداد لها على مستوى السلطنة المملوكية، وعلى المستوى الفردي. وقد أورد السيوطي كما ذكرنا سابقاً التجهيزات الكبيرة للركب، وما يضمه من عناصر مهمة تقدم كل الخدمات التي يحتاجها الحجاج في رحلة الذهاب والإياب مما يدل على عظم الاستعداد، ومقدار النفقة عليه سواء من الخزينة السلطانية أو الأوقاف، أو المغارم المفروضة على الأمراء والفلاحين [٤٣].

---

(٣٦) Palmer R. ; The Born Sahara and Sudan, London, 1936, PP. 85-86.

(٣٧) Ibid, P. 85.

See also Barth, H ; Travels and discoveries in North and Central Africa from 1849-1855, London, 1965, Vol. 2. P. 58

(٣٨) Palmer. OP. Cit, P. 85 -86.

(٣٩) عمر النقر: مرجع سابق، ص٩٠.

(٤٠) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢، ص ٣٦٦.

(٤١) العمري: مصدر سابق، جـ٤، ص

(٤٢) القلقشندي: جـ٨، ص١١٦ – ١١٨.

(٤٣) انظر: البحث، ص-ص٤-٥.

وقبل خروج الركب يتم الاحتفال بالمحمل السلطاني بالدوران به في شوارع القاهرة في منتصف شهر شوال. ويعد السلطان بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧م) أول من احتفل بالمحمل، ومروره بشوارع القاهرة عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م. [٤٤] وبمرور الأيام تطور المحمل تبعاً لأهميته وزيادة مهامه، فتطورت تبعاً لذلك وسائل حمله من حمل يحمل الكسوة إلى ثمانية وعشرين جملاً[٤٥].

وكان دوران المحمل من القاهرة إعلاناً لأفراد الركب بأن الطريق من مصر إلى بلاد الحرمين آمنة، ويبدأ سير المحمل من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، وأمامه الوزير والقضاة الأربعة، والمحتسب، وناظر الكسوة راكبين خيولهم. ويسير معه أيضا بعض أمراء المماليك بملابسهم الحربية حاملين الرماح يلعبون بها. وكان يطلب من أصحاب الحوانيت التي كانت تقع في طريق سير المحمل تزيين حوانيتهم، ويسير الركب مع ضرب الطبول والصنج النحاسية من باب النصر إلى الفسطاط، ثم إلى باب القلعة، ثم إلى جامع الحاكم بأمر الله، ويترك المحمل في القلعة حتى شهر شوال حيث يخرج للسفر إلى بلاد الحرمين [٤٦].

والراجح أن ركاب الحجاج الأفارقة القادمة إلى مصر للخروج مع ركب الحج السلطاني كانت تشارك هي الأخرى في احتفالات دوران المحمل في شوارع القاهرة، فقد حضر الرحالة ابن بطوطة احتفال دوران المحمل أثناء وجوده في مصر عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، وقد وصف ذلك وصفا دقيقاً [٤٧].

رابعاً – طريق ركب الحج السلطاني إلى الحجاز:

كان الحجاج المصريون والقادمون من بلاد المغرب والسودان الغربي والأوسط، وغيرهم يتجمعون في مكان خارج مدينة القاهرة يطلق عليه "بركة الحاج" التي تقع على بعد عشرة أميال عن القاهرة، وعادة الركب النزول بها ليتلاحق الحجاج، وربما أقاموا بها يومين أو ثلاثة. وهذا المكان مهم للحجاج، فقد كانت به آبار عذبة يتزود الحجاج منها بحاجتهم من الماء، كما كان بها سوق عظيمة يتزود منه الحجاج باحتياجاتهم [٤٨].

---

[٤٤] القلقشندى: مصدر سابق، جـ٤، ص٥٧.

[٤٥] يقول الجزيري ثمانية وعشرون حملا ما هو لحمل المحمل جمل واحد ولحمل الكسوة الشريفة والماء أربعة والسقائين عن سقاية خدمة المحمل ستة، ولحمل الحوائج الخاصة التي ضمنها ثوب المحمل جمل والقاضي والشاهدين جملان، ولشاد المحمل جمل، والحكيم والمزين جمل، وجماعة الكوسات والزمار ستة، وحملة المشاعل والدليل أربعة، وجمل احتياج القوافل جمل ونصف جمل، باسم حامل الطست بخدمة أمير الحاج نصف جمل (انظر الجزيري: الدرر الفوائد المنتظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، جـ١، ص٢٣٧، عائشة مانع: مرجع سابق، ص ٦٣.

[٤٦] القلقشندى: مصدر سابق، جـ٤، ص ٥٧-٥٨.

[٤٧] تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: دار الكتب العلمية، بيروت، ص٦٤، وأيضا دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م، ص٤٢-٤٤.

[٤٨] العبدري: رحلة العبدري، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، دار توبقال للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٦٨م، ص١٥٣.

وطبقا لـ "رواية العبدري" في رحلته أن ركب الحج المصري تحرك من بركة الحاج في صباح يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر شوال عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، وبدأ السير في البرية، وقد تم اجتياز هذه البرية بين مصر وبلاد الحجاز مسيرة أربعين يوماً [٤٩].

وكان الركب يتحرك من البركة إلى السويس في ثلاثة أيام كما ذكر العبدري [٥٠]، أو خمس مراحل كما ذكر السيوطي، ثم اتجه إلى نخل – في سيناء – في خمس مراحل، ومنها رحل الركب إلى إيلة (العقبة) في خمس مراحل، فينزل منها الركب إلى ناحية بحر القلزم [٥١]. فيدور الركب من ورائه ويترك بحر القلزم (الأحمر) يميناً، ولا يزال محاذياً له إلى مكة [٥٢]. وقد أوردت كاب الرحلات والتاريخ اسم المنازل التي كان يتوقف بها الحجاج حتى يصلون إلى مكة المكرمة، ثم يزورون المسجد النبوي [٥٣].

والجدير بالذكر أن الركب كان يسلك الطريق وفق نظام معين، والدليل أمامهم ليلاً ونهاراً، فلا ينزلون منزلاً، ولا يرحلون إلى مكان ما إلا بعد أن تدق الطبول والصنجات النحاسية، ويعلو صوت النفير ليؤذن للناس بالنزول أو الرحيل. كما كان حملة المشاعل يسيرون أمام الركب، وخلفه لهداية من ضل الطريق، ومعهم جمال السبيل يحملون عليها غير القادرين على السير [٥٤].

وبسبب تعدد هذه العناصر الإثنية التي خرجت مع ركب الحج المصري إلى بلاد الحرمين، كانت الركاب القادمة من بلاد المغرب والأندلس، والسودان الغربي، والسودان الأوسط، بالإضافة إلى الحجاج المصريين يحملون شارات وأعلام يتعارفون بها، فإذا ضل أحدهم استطاع العودة بسهولة إلى جماعته وأهل بلده في سهولة ويسر [٥٥].

خامساً – المصاعب التي كانت تواجه ركب الحج المصري:

اهتم سلاطين المماليك في مصر بتيسير وتسهيل الطريق الذي يسلكه الركب من خلال توفير الأمن والأمان. وتأتي شهادة العبدري في رحلته للحج عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م لتبين هذا الدور العظيم، فبعد أن صب جام غضبه على الأعراب لسوء سلوكهم وأفعالهم، خاصة إذا انقضوا على حاج تخلف عن الركب، ولهذا قال: "لولا صاحب مصر وما ألهمه الله من الاعتناء بالركب، وإخراج

---

[٤٩] المصدر السابق، والصفحة.

[٥٠] المصدر السابق، والصفحة.

[٥١] حسن المحاضرة: جـ٢، ص٢٦٦.

[٥٢] العبدري: مصدر سابق، ص١٥٧.

[٥٣] العبدري: مصدر سابق، ١٥٧–١٦٥، القلقشندى: مصدر سابق، جـ١٤، ص٢٨٦، السيوطي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٦٦–٢٦٧.

[٥٤] المقريزي: السلوك، جـ٢، قسم١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨م، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ص ٢٥٠ – ٢٥٧، السلوك: سعيد عاشور، جـ٣، قسم ١، دار الكتب، ١٩٧١م.

[٥٥] العبدري: مصدر سابق، ١٥٣–١٥٦

الحصة معه بأمير على أكمل ما يكون من الاستعداد والتأهب ما سلك أحد تلك البرية لطولها وخلائها إلا من القطاع". [٥٦]

وعلى الرغم من قيام سلاطين المماليك بتأمين الطريق وتزويد الركب بالأمراء والجند لصد الأعراب وإغارتهم، إلا أن هذا لم يمنع من حوادث تعدي العربان على الركب في الطريق إلى بلاد الحجاز. فيرصد المقريزي بعض هذه الاعتداءات، منها ما حدث في عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م في عهد السلطان المملوكي الأشرف شعبان بن الناصر حسن (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م) اعتداء على الركب، وهو في طريقه للمدينة المنورة، وقتلوا عدداً من الحجيج. كما اعتدوا أيضاً على الركب الذي خرج عام٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م [٥٧].

واشتد خطر الأعراب في منتصف العقد الرابع من القرن التاسع حتى نودي في عام ٨٣٥هـ/ ١٤١٣م في عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) بألا يسافر أحد إلى جدة أو مكة خوفاً من الإعراب[٥٨]. لم يقف سلاطين المماليك مكتوفي الأيدي أمام إغارات هؤلاء الأعراب، فتعددت وسائل مواجهتهم منها الإغارة عليهم. فقد أرسلت حملة ضد قبيلة بلي التي اعتدت على الحجاج في عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، وانهزمت هذه القبيلة مما اضطر بعض شيوخهم للقدوم إلى القاهرة يطلبون عفو السلطان والتزامهم بحفظ الحجاج، وعدم الاعتداء، فعفا عنهم وخلع عليهم. [٥٩].

كما ضاعف سلاطين المماليك الحراسة على ركب الحج فقد خرج مع الركب عام ٧٥١هـ أمير السلاح ونائب السلطنة ومعه مائة وخمسون مملوكاً مجهزين بالسلاح، وخرج أمير مملوكي آخر على رأس ستين فارساً هكذا كان الركب يمشي في حراسة فرسان المماليك وجنودهم[٦٠].

كما لجأ بعض سلاطين المماليك إلى أسلوب التهدئة مع هؤلاء العربان من خلال الإنعام عليهم كما فعل الناصر محمد بن قلاوون عند حجه عام ٧١٩هـ/١٢١٩م مما أدى إلى انتشار الأمن على طول الطريق من القاهرة إلى الحجاز طوال عهد الناصر، وامتد التأمين إلى ركاب الحج الأخرى كما حدث مع ركب الحج العراقي عام ٧٢١هـ ١٣٢١م[٦١].

كما واجه ركب الحاج المصري مشكلة قلة الماء على طول الطريق وكانت هذه المشكلة تتسبب في هلاك الدواب والحجاج كما حدث في عام ٧٦٨هـ/١٣٦٦م من شدة الحر والعطش. [٦٢].وحدث أيضاً هذا الأمر عام ٨٢٣هـ/١٤٢٩م ومات في هذا العام عدة آلاف من الحجاج في رحلة الذهاب[٦٣].

---

[٥٦] الرحلة المغربية، ص١٥٤.

[٥٧] المقريزي: السلوك، ج٣، قسم ١، ص٢٥٧، ٣٤٨، ٣٤٩.

[٥٨] المصدر السابق، ج٤، قسم ٢، ص٨٦٥.

[٥٩] المصدر السابق، ج٤، قسم ٢، ص١١٠٥-١١٠٩.

[٦٠] المصدر السابق، ج٢، قسم ٣، ص٨٢٢.

[٦١] المصدر السابق، ج٢، قسم ١، ص٢٠١، ص٢١٤، ٢١٥.

[٦٢] المصدر السابق، ج٣، قسم ١، ص١٤٥.

ولعلاج هذه المشكلة بذل بعض سلاطين المماليك جهوداً كبيرة في حفر الآبار وعيون الماء وصيانة الموجود منها. وبناء السقايات المعروفة باسم السبيل[٦٤] وقد تعددت الآبار التي حفرت على أيدي بعض سلاطين المماليك[٦٥].

هكذا نهضت مصر في عصر سلاطين المماليك بمرفق الحج، وقدمت كل التسهيلات والتيسيرات للحجاج ووفرت لهم الأمن والأمان منذ خروج الركب من بركة الحاج في شمال مدينة القاهرة حتى وصوله إلى بلاد الحرمين وأداء المناسك والعودة بسلام وأمن إلى القاهرة ولم يقتصر الأمر على تسهيل أمور الحج للحجاج المصريين فقط بل امتدت إلى الحجاج الأفارقة والقادمين من بلاد المغرب وبلاد السودان الأوسط والغربي.

الخاتمة:

يُعد ركب الحج المصر الأهم والأشهر بين ركاب الحجاج الأخرى، لتبعية بلاد الحجاز السياسية والروحية لمصر في العصر المملوكي.

بذل سلاطين المماليك جهوداً كبيرة للعناية بركب الحاج المصري من خلال توفير كل سبل الراحة للحجاج في الذهاب والإياب.

أوضحت الدراسة العناصر المكونة للركب المصري والتي أسهمت في تقديم الخدمات الأمنية والشرعية والإنسانية والطبية.

كانت النفقة على الركب تتم من خلال ريع الأوقاف والخزانة السلطانية بالإضافة إلى المغارم التي فُرضت على أمراء المماليك والفلاحين المصريين.

كان أمير ركب الحج المصري يُقلد من خلال مرسوم سلطاني يحدد فيه المهام المُكلف بها.

كان الحجاج المغاربة قبل تأسيس الركب المغربي يخرجون مع ركب الحج المصري ومع تأسيس الركب المغربي انضم لركب الحج المصري لينعم بالأمن والأمان ويستفيد بكافة الخدمات التي يقدمها الركب المصري.

أعان ركب الحج المصري الحجاج القادمين من بلاد السودان الغربي والأوسط على أداء فريضة الحج من خلال انضمام ركابهما إلى ركب الحج المصري.

أبرزت الدراسة المصاعب التي كانت تواجه ركب الحج المصري والمتمثّلة في تهديد الأعراب لأمن الطريق من القاهرة إلى بلاد الحرمين، بالإضافة إلى مشكلة ندرة المياه عبر هذا الطريق، والجهود التي بذلها سلاطين المماليك للتغلب على هذه المصاعب.

---

[٦٣] المصدر السابق، ج٤، قسم ٢، ص٨٣٦-٨٥٤.

[٦٤] المصدر السابق، ج٤، قسم ٣، ص١١٠٢، ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج١٣، ص١٧.

[٦٥] المقريزي: السلوك، ج٢، قسم١، ص٣٠٣، ج٤، قسم٢، ص٨٥٩، ٨٦٠، ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٩، ص٦٠.

مراجع الدراسة:

- آمنة حسين محمد: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- سعيد عاشور: المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٣٦.
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، الوثيقة وقف السلطان حسن، رقم ٨٨١، أوقاف
- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الجزء الثاني، قسم ٣،
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، جـ١٠،
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٧، ص٢٣١
- عائشة فالح عبيد: إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ملحق رقم ٢، ص ٢٠٢إلى ٢٢٣.
- المقريزي: السلوك، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٠م، جـ٣، قسم ٢،
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص١١.
- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر وتعليق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧م.
- حسين مراد: الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرنين ٢ -٦ هـ/٧-١٢م، مؤتمر الإسلام في أفريقيا، الخرطوم، ٢٠٠٦م، الكتاب ١١.
- حسين مراد، موسوعة التاريخ الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، المجمع الثقافي، أبوظبي، ط١، ١٩٩٩م.
- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الثقافة الدينية، القاهرة.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م، جـ٥.
- محمد عبد العال أحمد: منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، جـ٤.
- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز وزايد للتراث والتاريخ، الامارت، ٢٠١٠م، جـ٤.
- إبراهيم طرخان: دراسات في تاريخ افريقية الإسلامية قبل عهد الاستعمار إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، السعودية، مجلد ٨، ١٩٨١م.
- عمر النقر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في أفريقيا الغربية، ترجمة: أبوبكر أحمد باقادر، دار كنوز المعرفة، جدة، ط١، ٢٠١١م.
- ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م، ج٣.
- Palmer R. ; The Born Sahara and Sudan, London, 1936.

- Barth, H ; Travels and discoveries in North and Central Africa from 1849–1855, London, 1965, Vol. 2

- الجزيري: الدرر الفوائد المنتظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، جـ١.
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: دار الكتب العلمية، بيروت، ص٦٤، وأيضا دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م.
- العبدري: رحلة العبدري، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، دار توبقال للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٦٨م.
- المقريزي: السلوك، جـ٢، قسم١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨م، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، السلوك: سعيد عاشور، جـ٣، قسم ١، دار الكتب، ١٩٧١م.